البنية السردية في كتاب "طوق الحمامة في الألفة والألاف" لابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ)

د. أحمد عبد الرءوف أحمد رفاعي(*)

الملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة البنية السردية ومكوناتها في كتاب طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي، وقد تكونت الدراسة من مقدمة وتمهيد وخمسة مباحث. وتناولت في التمهيد: مفهوم البنية، والسرد، والتعريف بابن حزم وكتابه طوق الحمامة. ثم مضى البحث في دراسة مكونات البنية السردية في كتاب طوق الحمامة من خلال خمسة مباحث: أنماط السرد في طوق الحمامة، والراوي وبناء الشخصيات، والزمن السردي، والمكان ودلالاته، والحوار ووظائفه في طوق الحمامة. وخُتم البحث بالنتائج، والمصادر والمراجع.

وقد أسهمت، من خلال هذا البحث، في إبراز ما يتميز به طوق الحمامة كنص سردي من تفرد وخصوصية، حيث اعتمد ابن حزم على تقنيات سردية متنوعة، كالاسترجاع والاستباق والحوار ومزج بين السرد والتأمل الفلسفي والفقهي. وقد نجح ابن حزم في بناء نص سردي متماسك يخدم رسالته الفكرية والأخلاقية، ويعكس تقاليد المجتمع الأندلسي وعاداته في الحب والعشق.

مقدمة

كتاب طوق الحمامة في الألفة والأُلاف لابن حزم الأندلسي (٤٥٦-٣٨٤هـ) من أبرز الكتب التي تناولت موضوع الحب في التراث العربي الإسلامي، حيث يجمع بين التحليل النفسي والاجتماعي، والتأمل الفلسفي، والتوثيق التاريخي لتجارب إنسانية متنوعة تتعلق بالعشق والارتباط العاطفي. يكتسب الكتاب أهميته من كونه لا يقتصر على كونه مجرد عرض نظري لمسألة الحب، بل يتضمن معالجة دقيقة للمشاعر الإنسانية من منظور فقيهٍ وفيلسوفٍ موسوعيّ، إذ يعكس فكر ابن حزم الظاهري وتحليله العميق لمفاهيم الألفة والعشق من خلال سردٍ غنيّ بالتفاصيل والشهادات الواقعية. وعلى الرغم من تصنيفه ضمن كتب الآداب والمراسلات، إلا أن طوق الحمامة يتجاوز هذا التصنيف التقليدي من خلال توظيفه لبنية سردية متعددة المستويات، حيث تتداخل في نسيجه الحكايات الشخصية مع الروايات التاريخية والأمثلة الاجتماعية، في مزيج يجمع بين الذاتية والموضوعية. ومن خلال ذلك، يتحول النص إلى وثيقة أدبية وفكرية فريدة، تقدم رؤية فلسفية متكاملة لمفهوم الحب، متجاوزة الطابع العاطفي إلى التحليل العقلي والرمزي. ودراسة البنية السردية لهذا الكتاب تتيح لنا الوقوف على الأساليب السردية التي اعتمدها ابن حزم في بناء حكايته،

(*) أستاذ مساعد الأدب العربي القديم كلية الآداب- جامعة دمياط

وكيفية تشكيله للنصوص السردية لتخدم أغراضه الفكرية والتربوية، مما يفتح المجال لاستكشاف عمق العلاقة بين السرد والتأمل الفلسفي والاجتماعي في التراث العربي الإسلامي.

أهمية البحث

يُمثّل تحليل البنية السردية في طوق الحمامة إضافة نوعية للدراسات الأدبية، إذ يتيح فهم آليات السرد التي استخدمها ابن حزم في عرض قصص الحب وتجارب العشاق، ومدى ارتباط هذه البنية بالنظرة الفقهية والفلسفية التي تميَّز بها المؤلف. كما يُسلط البحث الضوء على السمات السردية التي تجعل من الكتاب نصاً متعدد الأبعاد، يجمع بين الحكاية التاريخية، والتأمل النفسي، والتحليل الاجتماعي.

أسباب اختيار الموضوع

هناك أسباب عدة لاختيار هذا الموضوع تتمثل فيما يأتي:

١- ندرة الدراسات التي تتناول طوق الحمامة من منظور السرديات الحديثة، حيث ركّزت معظم الأبحاث السابقة على مضمونه الأخلاقي والاجتماعي دون تحليل معمق لآلياته السردية.

٢- إبراز دور السرد في تشكيل فكر ابن حزم، الذي لم يكن مجرّد ناقلٍ لتجارب الآخرين، بل كان يدمج التحليل العاطفي بالمنهج الفقهي والفلسفي.

٣- الكشف عن كيفية استخدام ابن حزم للسرد القصصي كوسيلة لشرح نظرياته عن الحب، مما يضفي طابعاً أدبياً على النص، ويمنحه طابعاً روائياً في بعض جوانبه.

٤- الإسهام في تعزيز فهمنا لتطور الكتابة السردية في التراث العربي.

الإشكالية البحثية

كيف تتجلى البنية السردية في كتاب طوق الحمامة؟ وما الأساليب التي اعتمدها ابن حزم في سرد قصص الحب وتجارب العشاق؟ وما علاقتها بالمنهج الفلسفي والفقهي الذي تبنّاه في معالجة قضايا الحب؟

أهداف البحث

١- تحليل البنية السردية في طوق الحمامة، عبر دراسة عناصر الراوي، والزمن، والشخصيات، والمكان.

٢- إبراز الدور الذي لعبه السرد في إيصال أفكار ابن حزم حول الحب والعشق.

٣- إبراز العلاقة بين السرد والتحليل النفسي والاجتماعي في نصوص الكتاب.

٤- فهم كيفية تأثير المنهج الظاهري لابن حزم على أسلوبه السردي.

منهج البحث

يعتمد هذا البحث على التحليل البنيوي للسرد في كتاب طوق الحمامة، للكشف عن بنية النص وتقنياته السردية وعلاقته بالمفاهيم السردية الحديثة.

خطة الدراسة

تتكون هذه الدراسة من تمهيد وخمسة مباحث على النحو الآتي:

التمهيد: ويتناول مفهوم البنية، ومفهوم السرد، والتعريف بابن حزم وكتابه طوق الحمامة.

المبحث الأول- أنماط السرد في طوق الحمامة

ويشتمل على:

١- السرد الذاتي (التجارب الشخصية لابن حزم).

٢- السرد الغيري (نقل روايات الآخرين وتحليلها).

٣- السرد التوثيقي (الاستشهاد بالقرآن الكريم والشعر والتاريخ).

المبحث الثاني- الراوي وبناء الشخصيات في طوق الحمامة.

ويشتمل على:

١- دور الراوي في تشكيل النص السردي.

٢- أنماط الشخصيات.

المبحث الثالث- الزمن السردي في طوق الحمامة

ويشتمل على:

١- مفهوم الزمن في السرد الأدبي.

٢- تقنيات الزمن السردي في طوق الحمامة :

- الاسترجاع (Flashback) والاستباق. (Flashforward)

- العلاقة بين الزمن السردي والزمن التاريخي.

٣- دور الزمن في إبراز التحولات العاطفية والنفسية.

المبحث الرابع- المكان ودلالاته في السرد

ويشتمل على:

١- مفهوم المكان في السرد الأدبي.

٢- أنماط المكان في طوق الحمامة.

٣- دلالات المكان وتأثيره في بناء النص السردي.

المبحث الخامس- الحوار في طوق الحمامة

ويشتمل على:

- أنواع الحوار.
- وظائف الحوار.

تمهيد

أولا- مفهوم البنية

جاء في لسان العرب: "البِنْيَةُ والبُنْيَةُ ما بَنَيْتَهُ وهو البِنَى والبُنَى...يقال بِنْيَةٌ وهي مثل رِشوةٍ ورِشًا، كأن البِنية الهيئةُ التي بنيت عليها مثل المِشيةِ والرِّكبةِ. . . والبُنَى بالضم مقصور مثل البنى يقال بنية وبنىً وبنية وبنى بكسر الباء مقصور مثل جزية وجزى، وفلان صحيحُ البنية أي الفطرة، وأبنيت الرجل: أعطيته بناءً وما يبتني به داره"[١]. فالمعنى اللغوي للبنية يتمثل في البناء والتشييد والطريقة والكيفية.

وأما في الاصطلاح فقد عرفها جيرالد برنس بأنها: "شبكة العلاقات التي تتولد من العناصر المختلفة للكل، بالإضافة إلى علاقة كل عنصر بالكل"[٢]. **ويعرف بعض الباحثين البنية بأنها:** "ترجمة لمجموعة من العلاقات بين عناصر مختلفة أو عمليات أولية، على شرط أن يصل الباحث إلى تحديد خصائص المجموعة والعلاقات القائمة فيما بينها من وجهة نظر معينة"[٣]. ويرى الدكتور صلاح فضل أن "مصطلح البنية لا يخلو من إيهام واختلاط ويلعب السياق دورا رئيسيا في تحديده مما يجعله مرنا بالضرورة؛ فتناوب عليه عمليات توصيفية مختلفة سواء كانت علمية بحتة أو فلسفية أو جمالية"[٤].

ثانيا- مفهوم السرد

السرد في اللغة – كما جاء في لسان العرب- هو "تقدمة شيء إلى شيء، تأتي به متسقا بعضه في أثر بعض متتابعا. سرد الحديث ونحوه يسرده سردا إذا تابعه. وفلان يسرد الحديث سردا إذا كان جيد السياق له. وفي صفة كلامه، صلى الله عليه وسلم، لم يكن يسرد الحديث سردا أي يتابعه ويستعجل فيه. وسرد القرآن: تابع قراءته في حدر منه. والسَّرَد: المتتابع. وسرد فلان الصوم إذا والاه وتابعه"[٥].

والسرد في الاصطلاح له تعريفات عدة، فقد عرفه جيرالد برنس بأنه "الحديث أو الإخبار (كمنتج وعملية وهدف وفعل وبنية وعملية بنائية) لواحد أو أكثر من واقعة حقيقية أو خيالية (روائية) من قبل واحد أو اثنين أو أكثر (غالبا ما يكون ظاهرا) من الساردين لواحد أو اثنين أو أكثر (ظاهرين غالبا) من المسرود لهم"[٦].

---

[١] ابن منظور: لسان العرب، مادة بني.

[٢] جيرالد برنس: المصطلح السردي، ترجمة عابد خزندار، مراجعة وتقديم محمد بريري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ٢٢٤.

[٣] صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩٨، ص ١٢٢.

[٤] نفسه: ص١٢٢، ١٢٣.

[٥] ابن منظور: لسان العرب، مادة سرد.

[٦] جيرالد برنس: المصطلح السردي، ص ١٤٥.

ويعرفه سعيد يقطين بأنه " نقل الفعل القابل للحكي من الغياب إلى الحضور، وجعله قابلا للتداول، سواء كان هذا الفعل واقعيا أو تخييليا، وسواء تم التداول شفاها أو كتابة"(١).

فالسرد في أيسر تعاريفه وأقربها إلى الأذهان يتمثل في الحكي الذي يندرج من الأفعال البدنية للتلفظ بكلمات تعطي دلالات متتابعة، وصولا إلى الرواية التي تجسد وجوده الفني بأكمل صوره (٢).

واستعمل تودوروف (Todorov,1969) السرد (Narration) بمعنى الحكاية، ويستعمل مصطلح السرد أيضا رديفا للكلام باعتباره وسيطا يحمل الرسالة المذكورة، وقد اتسع مجال استخدام السرد في عصرنا الحديث فأصبح يطلق على كل ما يتعلق بالقصص فعلا سرديا أو خطابا قصصيا أو حكاية، ويضبط السياق المعنى الدقيق الذي يعنيه (٣).

ثالثا- التعريف بابن حزم وطوق الحمامة

هو "أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن معدان بن سفيان بن يزيد، مولى يزيد بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس الأموي، وجده يزيد أول من أسلم من أجداده، وأصله من فارس، وجده خلف أول من دخل الأندلس من آبائه"(٤).

أما عن مولده ومكان ولادته، فقد ذكر الحميدي أن "مولده في ليلة الفطر سنة أربع وثمانين وثلاث مئة بقرطبة"(٥).

وأما عن نشأته وثقافته وعلمه، فقد نشأ نشأة مترفة منعمة في أسرة عريقة غنية وعاش حياة القصور في كنف والده، الذي تقلد الوزارة، وعمل على تعليمه وتثقيفه حتى صار عالما وأديبا. يقول الحميدي: "كان حافظا عالما بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطا للأحكام من الكتاب والسنة، متفننا في علوم جمة، عاملا بعلمه، زاهدا في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة وتدبير الممالك، متواضعا ذا فضائل جمة، وتواليف كثيرة في كل ما تحقق به من العلوم. . . وكان له في الآداب والشعر نفَسٌ واسع وباع طويل، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه. وشعره كثير"(٦).

---

(١) سعيد يقطين: السرد العربي، قضايا وإشكالات، مجلة علامات في النقد، ج ٢٩، مج ٨، سبتمبر ١٩٩٨.

(٢) ينظر: صلاح صالح، سرديات الرواية العربية المعاصرة، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط١، ٢٠٠٣م ص ٩.

(٣) ينظر: معجم السرديات، مجموعة من المؤلفين، إشراف محمد القاضي، دار محمد علي للنشر، تونس، ط١ ٢٠١٠م، ص ٢٤٦.

(٤) ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م، المجلد الثالث، ص ٣٢٥.

(٥) الحميدي (أبو عبد الله محمد بن فتوح): جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق بشار عواد ومحمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١، ٢٠٠٨م، ص٤٥٠.

(٦) الحميدي: جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، ص ٤٤٩، ٤٥٠.

وقد أمضى طفولته بين النساء والجواري في قصر أبيه وتعلم على أيديهن، يقول ابن حزم: "ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري، لأني ربيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين تبقل وجهي؛ وهن علمتني القرآن ورويننى كثيراً من الأشعار ودربنني في الخط، ولم يكن وُكدِي، وإعمال ذهني مذ أول فهمي، وأنا في سن الطفولة جداً إلا تعرف أسبابهن، والبحث عن أخبارهن، وتحصيل ذلك"[١].

وقد كان لهذه النشأة بين النساء والجواري أثر كبير في طبعه بطابع الرقة واللين وإحاطته بكثير من قصص الحب والعشق وروايته لها، وقد ظهر هذا الأثر بقوة في كتابه "طوق الحمامة" محل الدراسة.

وأما عن مؤلفاته، فابن حزم له كثير من المصنفات المعروفة في مختلف العلوم بخلاف كتابه طوق الحمامة، وأبرزها في علم الجدل: كتابه المسمى كتاب الفصل بين أهل الآراء والنحل. وكتاب الصادع والرادع على من كفّر أهل التأويل من فرق المسلمين والردّ على من قال بالتقليد. وله كتاب في شرح حديث الموطأ والكلام على مسائله. وله كتاب الجامع في صحيح الحديث باختصار الأسانيد والاقتصار على أصحّها واجتلاب أكمل ألفاظها وأصح معانيها. وكتاب التلخيص والتخليص في المسائل النظرية وفروعها التي لا نص عليها في الكتاب ولا الحديث. وكتاب منتقى الإجماع وبيانه من جملة ما لا يعرف فيه اختلاف، وكتاب الإمامة والسياسة، وكتاب أخلاق النفس. وكتابه الكبير المعروف بالإيصال إلى فهم كتاب الخصال. وكتاب كشف الالتباس ما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس، بالإضافة إلى تواليف غيرها ورسائل في معان شتى كثير عددها.[٢]

وأما مذهبه، فقد مال في البداية إلى المذهب الشافعي ودافع عنه فترة من الزمن، ثم عدل في الآخر إلى قول أصحاب الظاهر مذهب داود بن علي ومن اتبعه من فقهاء الأمصار، فنقّحه ونهجه وجادل عنه ووضع الكتب في بسطه وثبت عليه إلى أن مضى لسبيله، رحمه الله. [٣]

وأما وفاته، فقد ذكر ياقوت الحموي أنه توفي سنة ست وخمسين وأربعمائة. [٤]

وأما طوق الحمامة، فهو من أبرز الكتب التي تحدثت عن الحب في تاريخ أدبنا العربي، وأكثرها شهرة وذيوعا. وقد صنفه ابن حزم على هيئة رسالة قسمها إلى ثلاثين بابا، تناول فيها

---

[١] ابن حزم الأندلسي: طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة ط٦، ص ٧٩.

[٢] ينظر: ياقوت الحموي(شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي)، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، جـ ٤، ص ١٦٥٧.

[٣] نفسه: جـ٤، ص ١٦٥٥.

[٤] نفسه: جـ٤، ص ١٦٥٥.

موضوع الحب من جميع جوانبه، يقول: "وقسمت رسالتي هذه على ثلاثين بابا. . . وهيئتها في الإيراد: أولها هذا الباب الذي نحن فيه وفيه صدر الرسالة وتقسيم الأبواب والكلام في باب ماهية الحب، ثم باب علامات الحب، ثم باب من أحب في النوم، ثم باب من أحب بالوصف، ثم باب من أحب من نظرة واحدة، ثم باب من لا يحب إلا مع المطاولة، ثم باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها، ثم باب التعريض بالقول، ثم باب الاشارة بالعين، ثم باب المراسلة، ثم باب السفير، ثم باب طي السر، ثم باب إذاعته، ثم باب الطاعة، ثم باب المخالفة، ثم باب العاذل، ثم باب الوصل، ثم باب الهجر، ثم باب الوفاء، ثم باب الغدر، ثم باب البين، ثم باب القنوع، ثم باب الضنى، ثم باب السلو، ثم باب الموت، ثم باب قبح المعصية، ثم باب التعفف".(١)

وسبب تأليف هذه الرسالة هو أن أحد أصدقاء ابن حزم الذين يعز عليه أن يرفض لهم طلبا قد بعث إليه يسأله أن يصنف له رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه، وهو ما ذكره ابن حزم نفسه في صدر رسالته، إذ يقول: "وكلفتني – أعزك الله – أن أصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة، لا متزيداً ولا مفنناً، لكن مُورداً لما يحضرني على وجهه وبحسب وقوعه، حيث انتهى حفظي وسعة باعي فيما أذكره فبدرت إلى مرغوبك، ولولا الإيجاب لك لما تكلفته، فهذا من العفو، والأولى بنا مع قصر أعمارنا ألا نصرفها إلا فيما نرجو به رحب المنقلب وحسن المآب غداً".(٢)

ومصادر ابن حزم في طوق الحمامة تتمثل في تجربته الشخصية، وتجارب المعاصرين له ممن يثق بهم وبرواياتهم، يقول: "والذي كلفتني فلا بد فيه من ذكر ما شاهدتْهُ حضرتي، وأدركته عنايتي، وحدثني به الثقات من أهل زماني، فاغتفر لي الكناية عن الأسماء فهي إما عورة لا نستجيز كشفها، وإما نحافظ في ذلك صديقاً ودوداً ورجلاً جليلاً وبحسبي أن أسمي من لا ضرر في تسميته ولا يلحقنا والمسمى عيب في ذكره، إما لاشتهار لا يغني عنه الطي وترك التبيين، وإما لرضى من المخبر عنه بظهور خبره وقلة إنكار منه لنقله". (٣)

فالكتاب يصور الحياة العاطفية لابن حزم وكثير من أصدقائه ومعاصريه، ويلقي الضوء على كثير من جوانب الحياة في المجتمع الأندلسي وعاداته وتقاليده في الحب والعشق.

المبحث الأول (أنماط السرد في طوق الحمامة)

كتاب طوق من أهم الكتب التي تناولت موضوع الحب بأسلوب يجمع بين الطابع الفلسفي، والسردي، والتوثيقي. ويتميز الكتاب بتعدد أنماط السرد، حيث يمزج المؤلف بين السرد الذاتي القائم على تجربته الشخصية، والسرد الغيري الذي ينقل من خلاله قصص الآخرين،

(١) ابن حزم: طوق الحمامة، ص ١٧، ١٨.

(٢) نفسه: ص ١٦.

(٣)ابن حزم: طوق الحمامة، ص ١٦.

فضلًا عن السرد التوثيقي الذي يعتمد على الاستشهاد بالشعر العربي، والقرآن الكريم، والأحداث التاريخية. وسوف أتناول هذه الأنماط بالتفصيل على النحو الآتي:

أولًا- السرد الذاتي (التجربة الشخصية للمؤلف)

في السرد الذاتي يكون السارد هو الشخصية المحورية في الحكاية، فهو الذي يتحدث عن نفسه ويقص ما جرى عليه من أحداث وما مر به من شخوص وغير ذلك[١]، فهو "يشهد بصحة الحكاية، يعطي مصادرها، إلخ"[٢].

والسرد الذاتي سمة بارزة في طوق الحمامة، حيث ينقل ابن حزم تجاربه الشخصية في الحب، مستخدمًا ضمير المتكلم **(أنا)**، ما يمنح النص طابعًا وجدانيًا صادقًا. ومن خلال هذا الأسلوب، يكشف ابن حزم عن رؤيته للحب وأفكاره وتأملاته الفلسفية حول العشق والهيام.

ومن السرد الذاتي في طوق الحمامة وصفه لأول تجربة حب عاشها، إذ يقول: "وأنا، أعزك الله، كنت في عنفوان الشباب، وغضاضة السن، لم أذق بعد طعم النساء، وكان لي قلب هائم، يشتاق إلى مناجاة الحب، فوجدته حيث لم أكن أبحث عنه[٣]". فابن حزم هنا يتحدث عن تجربته الشخصية، حيث يستعمل ضمير المتكلم "أنا"، ما يمنح السرد طابعًا ذاتيًا قويًا.

ومن السرد الذاتي أيضا وصف تأثره الشديد بالحب، إذ يقول: "ومذ عرفت الحب، لم أخل منه ساعة قط، ولا فارقني لحظة واحدة، فما أعلم لي في الحياة لذةً غيره، ولا أنكر عليَّ في القلب من دونه"[٤].

فهو هنا يصور مدى تأثير الحب في نفسه وتغلغله في وجدانه، بحيث صار جزءًا لا يتجزأ من حياته.

فابن حزم يوظف ضمير المتكلم ليبرز تجربته الشخصية بموضوعية وصدق، وهو في ذلك لا يقتصر على وصف مشاعره، بل ينقل لنا تأملاته الفكرية والفلسفية حول موضوع الحب.

ثانيًا- السرد الغيري (نقل روايات الآخرين وتحليلها)

السرد الغيري يعتمد على نقل روايات الآخرين باستخدام ضمير الغائب مثل: "أخبرني"، و"روى لي". فابن حزم يحكي كثيرا من القصص عن عشاق آخرين، ويقوم بتحليلها وربطها بمفاهيم الحب كما يراها.

---

[١] ينظر: فائز طه عمر، السرد في حكايات إخوان الصفا، بحث منشور في مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، عدد ٤٢، ١٩٩٧م، ص ٢٢٩.

[٢] جيرار جينيت وآخرون: نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير، ترجمة ناجي مصطفى، منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي، المغرب، ط١، ١٩٨٩م، ص ١٠٢.

[٣] ابن حزم: طوق الحمامة، ص ٣٦.

[٤] نفسه: ص ٨٥.

ومن ذلك قوله: "وحُدِّثت عن امرأة كانت تهوى رجلًا، فلما أعرض عنها وأبغضها، أقبلت على نفسها تذمها وتعاتبها، حتى تركت الزينة، وهجرت الطيب، ولزمت بيتها في حزن طويل"(١).

فابن حزم هنا لا يتحدث عن نفسه، بل ينقل لنا قصة عن امرأة هجرت الزينة والطيب بسبب إعراض حبيبها وهجره لها.

ومن السرد الغيري أيضا قوله: "وأخبرني صديق لي عن رجل عشق امرأة حتى ذبل جسمه، وعندما سئل عن حاله، قال: الهوى داءٌ لا يبرأ، وسقمٌ لا يشفى"(٢).

فابن حزم هنا ينقل عن صديقه عن شخص آخر حكاية تتعلق بمدى تأثير الحب في النفوس وتتضمن حكمة حول الحب والعشق.

فالسرد الغيري في طوق الحمامة يمنح الكتاب طابعًا موسوعيًا لأنه لا يقتصر على تجارب المؤلف بل ينقل لنا تجارب الآخرين. وهو لا يكتفي بالسرد بل يضيف رؤيته حول القصة في بعض الأحيان.

ثالثًا- السرد التوثيقي (الاستشهاد بالقرآن الكريم والشعر والتاريخ والأخبار)

يكثر ابن حزم من الاستشهاد بالشعر والقرآن الكريم لدعم آرائه حول الحب.

ومن ذلك قوله: "ومن الحب ما قتل، كما قال الشاعر: إذا شئت أن تلقى المحب مُتيَّمًا. . . فتلق الذي أمسى بسرك يهتدي"(٣).

فهو هنا يدعم فكرته باستخدام بيت شعري يوضح مدى تأثير الحب.

ومنه أيضا قوله: "وقد كان جميل بثينة من أكثر الناس وفاءً، حتى إنه لم يتزوج غيرها رغم فراقهما"(٤).

فابن حزم يتحدث عن قصة الشاعر العذري جميل بثينة وهي من القصص التاريخية، وذلك ليؤكد أفكاره حول الحب.

ومنه كذلك قوله: "قال الله تعالى: وجعلنا بينكم مودة ورحمة (الروم: ٢١)، فهذه طبيعة الحب، إذ يجمع بين المودة والرحمة)" (٥).

فهو هنا يستخدم آية قرآنية في سياق حديثه عن الحب.

---

(١) ابن حزم: طوق الحمامة، ص ١١٢.

(٢) نفسه: ص ١٨٧.

(٣) نفسه:، ص ١٤٥.

(٤) ابن حزم: طوق الحمامة، ص ٢١٠.

(٥) نفسه: ص ٩٧.

فالسرد التوثيقي في طوق الحمامة، أضفى طابعا علميا على الكتاب باستخدام مصادر تؤكد أفكاره، كما أن تنوع الاستشهاد من القرآن والشعر والتاريخ أثرى النص، مما أضفى على السرد تنوعا وعمقا.

من خلال ما سبق يتضح أن كتاب طوق الحمامة تميز بتنوع أساليب السرد، حيث جمع ابن حزم بين السرد الذاتي الذي يُبرز تجاربه الشخصية، والسرد الغيري الذي ينقل قصص الآخرين، بالإضافة إلى السرد التوثيقي الذي يعتمد على الاستشهاد بالقرآن والشعر والتاريخ لتأكيد أفكاره. هذا المزج بين الأساليب السردية جعل طوق الحمامة كتاباً فريداً، يشتمل على تحليل عميق لمظاهر الحب، من خلال المزج بين التجربة الشخصية، وروايات الآخرين، والأدلة النصية والأدبية.

المبحث الثاني (الراوي وبناء الشخصيات في طوق الحمامة)

يعد بناء الشخصيات وتوظيف الراوي من العناصر الأساسية التي تميز النص السردي في كتاب طوق الحمامة لابن حزم. فالراوي هنا ليس مجرد ناقل للأحداث، بل هو مشارك فيها، معلق على مجرياتها، وناقد للعلاقات العاطفية التي يعرضها، كما أن الشخصيات في الكتاب تتنوع بين الشخصيات العاشقة التي تعبر عن مختلف تجليات الحب، والشخصيات المؤثرة التي تلعب دوراً حاسماً في الأحداث، وأخيراً الشخصيات الرمزية والمجازية التي تُجسد القيم والأفكار الفلسفية التي يناقشها المؤلف، وسأتحدث ع ذلك بالتفصيل من خلال النقاط الآتية:

أولا- دور الراوي في تشكيل النص السردي

١- الراوي العليم والمشارك

يُعد ابن حزم الراوي الأساسي في طوق الحمامة، إذ يجمع بين كونه راوٍ عليم بالحوادث والمشاعر التي يسردها، وراوٍ مشارك في بعض التجارب العاطفية التي يرويها. فهو لا يقتصر على تقديم الحكايات، بل يقدم تعليقات فلسفية وتحليلًا نفسيًا حول الحب ومراحله وأثره في النفس البشرية. ومن الأمثلة على دور الراوي في تشكيل النص تحليله للحب باعتباره تجربة شخصية وعامة، إذ يقول: " قد علمتُ الحب معرفةً ليست بالظن، وذقتُه طعماً ليس بالوهم، فما أذكر أني عدمته مذ كنتُ، ولا عدمتُه حتى أكون"[١].

في هذا النص يتحدث الراوي عن الحب من منظور شخصي وعام، مما يعكس مكانته كراوٍ عليم وخبير في موضوع العشق.

ومن ذلك أيضا تعليقه على تصرفات بعض العشاق فهو حينما يروي قصة عاشق يتعذب في صمت، يعلق قائلاً: "وهكذا شأن المحب الصادق، يرى الوصال مستحيلاً، لكنه لا يملك إلا

[١] ابن حزم: طوق الحمامة، ص ٢٢.

أن يسير في درب الهوى ولو كان موحشاً"[١]. فهنا يتجاوز دور الراوي مجرد السرد، ليقوم بالتحليل النفسي والوجداني للحالة العاطفية.

ومنه كذلك إضفاء الطابع الفلسفي على السرد يقول ابن حزم: "إنما الحب اتصال النفوس قبل اتصال الأجساد، ولو كان غير ذلك، لكان لذةً زائلةً لا قيمة لها"[٢]. في هذا النص، نرى كيف يستخدم الراوي دوره لنقل رؤية فلسفية عن الحب، وليس فقط لسرد القصص.

ثانيًا- أنماط الشخصيات في الكتاب

١- الشخصيات العاشقة

يُعد العشاق حجر الزاوية في طوق الحمامة، حيث يعرض ابن حزم صوراً متنوعة للحب من خلالهم، تتراوح بين الحب الصادق، العذري، والشهواني، والمعذب. وقد أورد بن حزم نماذج مختلفة من الشخصيات العاشقة، **منها العاشق المتيم،**

ومن ذلك قوله يروي قصة عاش: " لم أجد في الدنيا سوى محبوبتي، فإن تكلمت كان حديثها أجمل، وإن سكتت فصمتها أرقُّ من النسيم"[٣].

هذه الشخصية تمثل العاشق المتيم الذي لا يرى في العالم شيئًا سوى محبوبته. **ومنها أيضا العاشق العفيف،** يقول ابن حزم عن أحد العشاق: "وقد رأيتُ فتى يحب فتاةً حباً طاهراً، فما قرب منها ولا همّ بسوء، وكان يقول: المحبة روح قبل أن تكون جسداً"[٤].

فهذه الشخصية تعكس نموذج العاشق العفيف الذي يرى الحب عاطفة روحانية أكثر منها جسدية. **ومنها كذلك العاشق المعذب** يروي ابن حزم عن عاشق :"والله ما أنام الليل إلا هائماً، ولا أُصيب الطعام إلا متكلفًا، ولا أتنفس إلا بأنفاسها"[٥]. فهنا نجد شخصية العاشق المعذب الذي يعاني من الحب حتى يصبح داءً يؤرقه.

٢- الشخصيات المؤثرة في الأحداث

وهي الشخصيات التي تلعب دوراً رئيساً في تحريك الأحداث، سواء أكانوا عشاقًا، أم وسطاء، أم معارضين للحب. ومن أمثلة الشخصيات المؤثرة شخصية **المرأة الحكيمة** التي لا تعطي قلبها إلا لمن يستحق، فابن حزم يروي عن امرأة تقول: "إن المرأة الحكيمة لا تعطي قلبها إلا لمن يعرف قيمته، فإن لم يكن كذلك، احتفظت به لنفسها"[٦].

---

[١] ابن حزم: طوق الحمامة، ص ٧٨.

[٢] نفسه: ص ١٣١.

[٣] نفسه: ص ٩٤.

[٤] ابن حزم: طوق الحمامة، ص ١٤٥.

[٥] نفسه: ص ١٦٧.

[٦] نفسه: ص ٢٠١.

فهذه الشخصية تمثل المرأة العاقلة الحكيمة التي تدرك طبيعة الحب وتتحكم في مجرياته.

ومن الشخصيات المؤثرة أيضا **شخصية الصديق الناصح**، يروي ابن حزم قول أحد الأصدقاء لعاشق: "إنك تهلك نفسك في حب من لا تراك، فإما أن تتدارك نفسك، أو تهلك"[١]. فهذا الصديق يلعب دور الناصح في العلاقات العاطفية.

ومن الشخصيات المؤثرة كذلك **شخصية المنافس في الحب**، يروي ابن حزم عن رجل ينافس صديقه في حب امرأة واحدة فيقول: "وقد تنافسنا فيها، فما ازددنا إلا فراقًا بيننا، وهي لا تأبه بنا"[٢]. فهذه الشخصية تمثل العاشق الذي يعاني من منافسة صديقه في حبه.

٣- الشخصيات الرمزية والمجازية

يوظف ابن حزم شخصيات رمزية ومجازية في سرده، لتوضيح رؤيته وأفكاره في موضوع الحب. ومن ذلك استعماله للحب نفسه باعتباره شخصية حية، إذ يقول: "الحب سيد لا يُردّ أمره، يذلّ له العزيز، ويستسلم له الحر، وهو لا يعرف المنطق ولا يُقيم وزنًا للعقل"[٣]. فهو هنا يصور الحب شخصية لها سلطة مطلقة على العشاق.

كما يستعمل القدر باعتباره عنصرا مؤثرا في الحب يقول: "قد يختار الإنسان قلبه، لكنه لا يختار مصيره، فإن شاء القدر فرق بين المحبين"[٤]. فهو هنا يصور القدر وكأنه شخصية تتلاعب بمصير العشاق.

من خلال ما سبق يتضح من تحليل الراوي والشخصيات في طوق الحمامة أن ابن حزم لم يكتفِ بنقل تجارب الحب فقط، بل قام ببنائها بطريقة تعكس رؤيته العميقة للعلاقات العاطفية. فالراوي يتجاوز كونه مجرد ناقل للأحداث ليصبح محللًا وناقدًا، بينما تتنوع الشخصيات بين العاشق المتيم، والعاشق العفيف، والشخصيات المؤثرة، والشخصيات الرمزية، مما يمنح النص ثراءً وتنوعًا يجعله فريدًا في السرد العربي.

المبحث الثالث (الزمن السردي في طوق الحمامة)

يُعد الزمن في النص السردي من العناصر المهمة التي تمنح النص الأدبي بعدًا ديناميكيًا، حيث يؤثر في إيقاع السرد، وبناء الشخصيات، وتطور الأحداث. وسأتحدث عن الزمن السردي في طوق الحمامة من خلال النقاط الآتية:

---

[١] ابن حزم: طوق الحمامة، ص ٢٢٠.

[٢] نفسه: ص ٢٤٥.

[٣] نفسه: ص ٢٧٦.

[٤] ابن حزم: طوق الحمامة، ص ٢٩٩.

أولا- مفهوم الزمن السردي

الزمن السردي كما يعرفه جيرالد برنس هو " الزمان أو الأزمنة التي تحدث في أثنائها المواقف والوقائع المقدمة (زمن القصة وزمن المسرود وزمن المحكي) وتمثيلها (زمن الخطاب وزمن السرد والزمن الروائي)"[١].

وزمن السرد يتعلق بتحديد موقع الحكاية الزمني من الفعل السردي، ويشكل زمن السرد مع المستوى السردي والشخصية المقولات الثلاث التي يدرس من خلالها المقام المنتج للخطاب السردي، وتكتسي تحديدات المقام السردي الزمنية أهمية لا تكتسيها تحديداته المكانية، وذلك لأنه يمكن رواية قصة دون تحديد المكان الذي تروى منه، ولكن يستحيل ألا يتحدد موقعها الزمني من الفعل السردي ما دامت تروى بالضرورة في الزمن الحاضر أو المستقبل. وتتمثل المسألة الأساسية في تحديد الوضع الزمني للمقام السردي في ضبط موقعه من الحكاية[٢].

فالزمن السردي ليس مجرد ترتيب زمني للأحداث، بل هو أداة تُستخدم لإبراز دلالات نفسية، وعاطفية، وفكرية.

ثانيًا- تقنيات الزمن السردي في طوق الحمامة

في طوق الحمامة، يوظف ابن حزم الزمن بطريقة جيدة يعكس من خلالها طبيعة الحب وتحولاته، سواء من خلال الاسترجاع (Flashback) الذي يعود بالمروي له إلى ذكريات الحب القديمة، أو الاستباق (Flashforward) الذي يعكس رؤى مستقبلية أو توقعات حول المصير العاطفي للشخصيات. كما تتشابك أزمنة السرد مع الزمن التاريخي، مما يمنح النص طابعًا مزدوجًا يجمع بين البعد الذاتي والبعد الاجتماعي.

أ- الاسترجاع (Flashback) في طوق الحمامة

الاسترجاع هو "مفارقة زمنية تعيدنا إلى الماضي بالنسبة للحظة الراهنة، استعادة لواقعة أو وقائع حدثت قبل اللحظة الراهنة (أو اللحظة التي يتوقف فيها القص الزمني لمساق من الأحداث ليدع النطاق لعملية الاسترجاع)" [٣].

ويُعد الاسترجاع أبرز التقنيات الزمنية التي يعتمد عليها ابن حزم في طوق الحمامة، إذ يستخدمها لسرد قصص الحب الماضية، والتجارب العاطفية التي عايشها أو نقلها عن غيره. ومن ذلك استرجاع تجارب الحب الأولى، يقول ابن حزم: "وما زلتُ أذكر ذلك اللقاء الأول، حين لم يكن في قلبي غير الدهشة، ولم تكن عيناي تبصران إلا نوراً يشع من وجهها"[٤]. فهنا، يُعيد الراوي القارئ إلى لحظة ماضية، مما يعزز الإحساس بالحنين وتأثير الذكريات على السرد.

---

[١] جيرالد برنس: المصطلح السردي، مرجع سابق، ص ٢٣٤.

[٢] ينظر: معجم السرديات، مجموعة من المؤلفين، ص ٢٣٢.

[٣] جيرالد برنس: المصطلح السردي، ص ٢٥.

[٤] ابن حزم: طوق الحمامة، ص ٤٥.

ومن ذلك أيضا قوله يروي عن أحد العشاق الذين فقدوا محبوباتهم: "كان لي حبيب، وكان وصاله أملًا، حتى جاء الفراق فصار الذكرى مرآتي الوحيدة"[١]. فقد وظف ابن حزم تقنية الاسترجاع هنا لإبراز ألم الفقد وكيف يظل الماضي حاضراً في الوجدان.

ب- الاستباق(Flashforward) في طوق الحمامة

الاستباق – كما يعرفه جيرار جينيت – هو " كل حركة سردية تقوم على أن يُروَى حدث لاحق أو يُذكَر مقدما"[٢]. فهو بذلك نقيض الاسترجاع.

ويستخدم ابن حزم الاستباق كأداة للتوقع والتنبؤ بمصير العشاق، أو للتحذير من عواقب الحب. ومن ذلك ذكر توقعاته في الحب، يقول: "وإني لأعلم أن هذا الحب لن يطول، فكما تشرق الشمس، لا بد أن تغيب "[٣]. فهذا النوع من الاستباق يعكس النظرة الفلسفية للحب كمصير حتمي يمر بمراحل عدة.

ومن ذلك تحذير العشاق من النهايات الحزينة لحبهم حينما يروي قصة عاشق، ثم يعلق: "وما رأيتُ حبًا انتهى إلا بدمع أو فراق، فلا يغترَّ العاشق ببداية مشرقة، فإن النهاية مجهولة"[٤]. وهذا الاستباق يمنح النص بُعداً تأملياً حول طبيعة الحب والمآل الحتمي لقصص الحب والعشق.

ثالثا- العلاقة بين الزمن السردي والزمن التاريخي

يتميز طوق الحمامة بارتباطه الوثيق بالزمن التاريخي، إذ يعكس الواقع الاجتماعي والثقافي لعصر ابن حزم في الأندلس، حيث كانت البيئة الفكرية والسياسية تؤثر في طبيعة العلاقات بين المحبين.

وهناك نصوص عديدة في الكتاب يظهر فيها التداخل بين الزمن السردي والزمن التاريخي، ومن ذلك تصوير ابن حزم للتقاليد الاجتماعية في عصره إذ يقول: "وكان اللقاء بين العشاق محفوفًا بالمخاطر، فلا يسمح للمرأة بالخروج إلا نادراً، فتكون النظرات هي لغة القلوب"[٥]. فهنا نرى كيف يتداخل الزمن السردي مع الزمن التاريخي، إذ يعكس العادات والتقاليد الأندلسية في التواصل بين العشاق والتي لا تسمح باللقاء المباشر، وإن حدث فإنه يكون مخاطرة كبيرة.

ومن ذلك أيضا حديث ابن حزم عن تأثير الأحداث السياسية والحروب على الحب والمحبين، إذ يقول: "وقد فرّقت الحروب بين قلوبٍ التقت على عهد الوفاء، فما عاد للحب مكان

---

[١] ابن حزم: طوق الحمامة، ص ١١٢.

[٢] جيرار جينيت: خطاب الحكاية بحث في المنهج، ترجمة محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلى، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط٢، ١٩٩٧م، ص ٥١.

[٣] ابن حزم: طوق الحمامة، ص ٨٩.

[٤] نفسه: ص ١٥٠.

[٥] ابن حزم: طوق الحمامة، ص ١٧٢.

بين الخراب"[١]. فهذه الإشارة تربط بين الزمن العاطفي والزمن السياسي، مما يُضفي على النص بُعداً تاريخياً عميقاً.

رابعا- دور الزمن في إبراز التحولات العاطفية والنفسية

يلعب الزمن في طوق الحمامة دوراً جوهرياً في إظهار تطور المشاعر والتحولات التي يمر بها العاشق، إذ يعكس كيف تتغير العاطفة مع مرور الوقت.

وهناك نصوص كثيرة في الكتاب توضح ذلك، ومنها قوله: "كان هواي ناراً أحرق بها، فإذا بي اليوم رماد، لا حرارة فيه ولا لهب"[٢]. فهنا نرى كيف يبرز الزمن تبدل المشاعر من العشق المتقد إلى الخفوت.

ومنها أيضا قوله يتحدث عن عاشق ظل ينتظر محبوبته، لكنه فقد الأمل بمرور الزمن: "انتظرتها طويلًا، حتى صار الانتظار نفسه صديقي الوحيد، ثم جاء اليوم الذي أدركت فيه أنها لن تعود"[٣]. فالزمن هنا يصبح عاملًا نفسيًا يُحوِّل الانتظار والترقب إلى يأس وخيبة أمل.

ومنها كذلك قوله: "أما اليوم، وقد مرت السنون، فإنني لا أنظر للحب كفتى مغرَم، بل كرجل عرف أن الهوى درسٌ في الحياة"[٤]. فهذا التحول يعكس كيفية تأثير الزمن في نضج الإنسان ووعيه ورؤيته للحب.

من خلال ما سبق يتضح أن الزمن في طوق الحمامة ليس مجرد خلفية للأحداث، بل هو عنصر فعّال يكشف عن تحولات الحب، والحنين إلى الماضي، والتوقعات في المستقبل. فهو يشتمل على توظيف معقد للزمن السردي، حيث يُستخدم الاسترجاع لاستحضار الذكريات، والاستباق لاستشراف المصير المحتمل. كما يرتبط الزمن السردي بالزمن التاريخي، مما يمنح النص بعداً واقعياً يعكس تقاليد المجتمع الأندلسي. وأخيراً، يُسهم الزمن في إبراز التحولات العاطفية والنفسية للعشاق، مما يجعل طوق الحمامة نصاً ثرياً يتجاوز مجرد كونه كتاباً عن الحب، ليصبح دراسة عميقة عن الإنسان والزمن.

المبحث الرابع (المكان ودلالاته في السرد في طوق الحمامة)

يُعد المكان أحد العناصر الأساسية في السرد الأدبي، فهو لا يُشكل فقط الخلفية التي تجري عليها الأحداث، بل يُسهم في بناء المعنى، وتطوير الشخصيات، وإبراز الدلالات العاطفية والفكرية للنص. وفي طوق الحمامة، يتجاوز المكان وظيفته كحيّز جغرافي إلى أن يصبح عنصراً مؤثراً في تكوين التجربة العاطفية، حيث تتجلى فيه مشاعر الحب، والشوق، والفقد،

---

[١] نفسه: ص ٢١٤.

[٢] ابن حزم: طوق الحمامة، ص ٢١٣.

[٣] نفسه: ص ٢٧٦.

[٤] نفسه: ص ٣١٢.

وحتى الذكريات. ويتخذ المكان في النص أبعاداً متباينة، فيظهر أحياناً بوصفه فضاءً عاماً يعكس التقاليد الاجتماعية، وأحياناً أخرى كحيّز حميمي يمتلئ باللحظات الخاصة بين العشاق. كما تتجلى في طوق الحمامة الرمزية العميقة للمكان، حيث يحمل بعض المواقع دلالات تتجاوز حدودها المادية لتصبح تمثيلًا للعاطفة والتجربة الإنسانية.

وسأتحدث عن المكان ودلالاته في السرد في طوق الحمامة من خلال النقاط الآتية:

أولا- مفهوم المكان في السرد الأدبي

المكان هو "الإطار الذي تقع فيه الأحداث"[١]. ويُعرفه جيرالد برنس بأنه "المكان أو الأمكنة التي تقدم فيها الوقائع والمواقف (مكان المواقف وزمانها، مكان القصة) والذي تحدث فيه اللحظة السردية"[٢]. وهو ليس مجرد إطار جامد، بل هو عنصر فعّال يؤثر في مجرى الأحداث وتطور الشخصيات، ويُعزز الدلالات النفسية والفكرية للنص.

ثانيًا- أنماط المكان في طوق الحمامة

يتنوع المكان في طوق الحمامة إلى أماكن عامة ومفتوحة، وأخرى خاصة وذات طابع حميمي، مما يُعزز من طبيعة التجربة العاطفية وأبعادها المتنوعة، وذلك على النحو الآتي:

أ- الأماكن العامة: فضاء اللقاءات العابرة والمجتمع

تمثل الأماكن العامة في طوق الحمامة المشهد الذي يلتقي فيه العشاق، حيث تكون العلاقات العاطفية في بداياتها، وتأخذ شكلها الاجتماعي المراقب، نظراً للقيود التي كانت تحكم العلاقات في البيئة الأندلسية، والأماكن العامة في طوق الحمامة تتمثل فيما يأتي:

١- الأسواق والساحات العامة

في الأسواق، تتاح للعشاق الفرصة لرؤية بعضهم، وإن كان ذلك عن بُعد، مما يجعل السوق مكاناً مليئًا بالإشارات الخفية والرسائل المرمزة.

يقول ابن حزم: "كم من عينٍ لقيتُها في السوق، ولم يكن بيني وبينها حديث، لكن النظرات وحدها كانت تكفي لتُشعل نار الهوى"[٣].

٢- الحدائق والبساتين

الحديقة ليست مجرد مكان طبيعي، بل هي فضاء للحب، حيث يلتقي العشاق بعيداً عن قيود المجتمع، لكنها تظل مكاناً محفوفًا بالمخاطر.

يصف ابن حزم لقاءً في بستان: "كنت أمشي في البستان، فإذا بي أرى حبيبتي بين الأشجار، كأنما خرجت من نسج الأحلام، فلم يطل اللقاء لكنه كان عمراً في لحظة"[٤].

---

[١] سيزا قاسم: بناء الرواية، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ١٠٦.

[٢] جيرالد برنس: المصطلح السردي، ص ٢١٤.

[٣] ابن حزم: طوق الحمامة، ص ٧٥.

[٤] ابن حزم: طوق الحمامة، ص ٩٨.

ب- الأماكن الخاصة والحميمية: فضاء اللقاءات العاطفية

على عكس الأماكن العامة التي تفرض قيوداً، نجد الأماكن الحميمية تُعبر عن التجربة العاطفية بعمق أكبر، حيث تتجلى مشاعر العشق، والشوق، والبوح بالأسرار. وتتمثل الأماكن الخاصة والحميمية في طوق الحمامة فيما يأتي:

١- نوافذ البيوت

النوافذ والشرفات تُستخدم في السرد كأماكن تجمع بين الحضور والغياب، إذ يقف العاشق تحت النافذة ليُراقب محبوبته، ويبعث لها برسائل عبر الإشارات والإيماءات. يقول ابن حزم: "كنت أمرٌ تحت نافذتها، وكأن روحي تخرج من صدري كلما لاحت لي طيفًا في الظلام"(١).

٢- الغرف المغلقة

يقول ابن حزم: "وأعرف من وقع في مثل هذا، وكان له غلام نجيب، فدخل عليه يوماً في بعض الساعات التي لم يكن يدخل فيها أحد، فوجده مضطجعاً، وقد أزاح عنه ثيابه، فوقف هنيهة، ثم دخل عليه، فوثب مذعوراً، واستحيا أشد الحياء، وعرض من التلون والاضطراب ما دلّ على ما في نفسه، فكان ذلك مبدأ ما جرى بينهما"(٢). فالمكان في قوله: "فدخل عليه يوما في بعض الساعات التي لم يكن يدخل فيها أحد" مغلق وخاص، مما يعزز الإحساس بالتوتر والخصوصية، ويرمز المكان المغلق هنا إلى الداخل النفسي، وإلى السرية الملازمة للحب. كما أن إزالة الثياب والاضطجاع والذعر ليست مجرد أوصاف حركية، بل إشارات رمزية إلى هشاشة العاشق، والعلاقة بين الجسد والحب في الخطاب الأندلسي، حيث يُعبّر الجسد عن مكنونات العاطفة دون تصريح.

ثالثا- رمزية بعض الأماكن في تشكيل التجربة العاطفية

يُحمّل ابن حزم بعض الأماكن في طوق الحمامة دلالات رمزية تتجاوز وظيفتها المادية، لتُصبح تعبيراً عن الحب، والفقد، أو الزمن العابر. ويتجلى ذلك فيما يأتي:

١- المساجد كمكان للتأمل والتخفيف من آلام الحب

يمثل المسجد في طوق الحمامة فضاءً للتحرر من العواطف العنيفة، حيث يلجأ العاشق إلى الروحانية لمواجهة آلام الحب.

يقول: "وفي المحراب، بكيتُ صامتاً، فلم يكن القلبُ يُفصح إلا لله"(٣).

---

(١) نفسه: ص ١٢٣.

(٢) ابن حزم: طوق الحمامة، ص ١٢٧.

(٣) ابن حزم: طوق الحمامة، ص ٢٠٠.

٢- الطرق والممرات كمكان للانتظار والتوقع

الطريق في السرد يُجسد رحلة العاشق بين الأمل واليأس، حيث يصبح انتظار لقاء الحبيب تجربة قائمة بذاتها. يقول: "كنت أمشي في الطريق، وأتساءل: هل سألقاها اليوم أم سيطول الفراق؟"(١).

٣- القبور كرمز للفقد والحب الضائع

تأخذ القبور في بعض المواضع معنى رمزياً للحب الذي انتهى، وكأنها المكان الذي تُدفن فيه الذكريات والمشاعر القديمة. يقول ابن حزم عن حب انتهى بالفراق: "كان الحب حياً، ثم مات، واليوم أزور قبره في قلبي"(٢).

رابعا– دلالات المكان وتأثيره في بناء النص السردي

يؤثر المكان في بنية النص السردي في طوق الحمامة من خلال:

١- إبراز طبيعة الحب والعلاقات بين المحبين

يلعب المكان في طوق الحمامة دورا مهما في إبراز طبيعة الحب والعلاقات بين المحبين، يقول ابن حزم: "وعرفت مرة إنساناً كان إذا ذكر محبوبه اضطرب، وتغير لونه، وارتعدت مفاصله، وكان لا يطيق أن يراه أحد في تلك الحال، فكان يتحامى الأماكن العامة، ويلزم زوايا بيته، ويغلق دونه أبوابه"(٣).

فالمكان الخاص هنا (زوايا البيت، الأبواب المغلقة) يتقابل مع المكان العام الذي يتحاشاه العاشق، وهذا التقابل يوضح أن الحب في طوق الحمامة مرتبط بـــالستر والخصوصية، وأن الفضاء المكاني ينعكس على طبيعة العلاقة التي تتسم بالخجل، والانكفاء، والذاتية. والعلاقة بين العاشق والمكان هنا ليست عابرة، بل تشكّل جزءاً من طقوس الحب، فالعاشق لا يهنأ إلا في فضاء مغلق يؤمّن له عزلته وانفعاله.

٢- تعزيز البعد النفسي للشخصيات

يسهم المكان في إبراز البعد النفسي للشخصيات ويتحول إلى مرآة للمشاعر، ومن ذلك قول ابن حزم: "فدخل عليه يوماً في بعض الساعات التي لم يكن يدخل فيها أحد، فوجده مضطجعاً، وقد أزاح عنه ثيابه، فوثب مذعوراً، واستحيا أشد الحياء"(٤).

---

(١) نفسه:، ص ١٨٩.

(٢) نفسه: ص ٢٣٤.

(٣) ابن حزم: طوق الحمامة، ص١٥٢.

(٤) نفسه: ص ١٢٧.

فالمكان في هذا المشهد ليس فقط خلفية للأحداث، بل هو انعكاس لحالة نفسية، كما أن الزمن المكاني (بعض الساعات التي لا يدخل فيها أحد) يعمق الإحساس بالسرية والخصوصية، في حين أن ردّة الفعل النفسية (الذعر، التلوّن) تتفجر بسبب اختراق هذا الفضاء.

٣- إضفاء الطابع التاريخي والثقافي على النص

يعكس المكان في طوق الحمامة طبيعة المجتمع الأندلسي، حيث تتداخل العادات والتقاليد مع تجارب الحب. يقول ابن حزم: "وكان بمدينة قرطبة حي يُعرف بـــ "الربض"، تسكنه طائفة من الفتيان والشبّان الموسرين، وكانوا يجتمعون في دار كبيرة يُقال لها "دار الجماعة"، يقرؤون فيها الأشعار، ويتحدثون في العشق، وكان لكل واحد منهم قصة"[١].

فالمكان هنا (قرطبة، الربض، دار الجماعة) تحول إلى سجل تاريخي وثقافي يعكس العادات الاجتماعية: المجالس، وقراءة الشعر، وتبادل القصص. وهو لا يحصر الحب في النفس، بل يصوره جزءاً من ثقافة أندلسية تعيشه وتناقشه علناً. وهذا النوع من الأماكن يعزز الطابع الحضاري للنص، حيث الحب ليس فقط تجربة وجدانية، بل ظاهرة ثقافية موثقة مكاناً وزماناً.

من خلال ما سبق يتضح أن المكان في طوق الحمامة يتخذ أبعادا سردية ووظيفية متعددة، فهو ليس مجرد إطار للأحداث، بل هو فضاء يُجسد العاطفة، ويعكس الحالة النفسية للشخصيات من خلال الفضاءات المغلقة أو المحظورة، كما يؤدي دوراً مهما في ترسيخ البعد التاريخي والثقافي للنص، إذ ترتبط الأماكن بمدن أندلسية وممارسات اجتماعية فعلية. ويتنوع المكان ليحمل كلٌّ منه دلالة خاصة تُسهم في صياغة تجربة الحب بثرائها وتعقيداتها.

المبحث الخامس (الحوار في طوق الحمامة)

الحوار هو "حديث يجري بين شـــخصـــين أو أكثر، كأن يكون حوارا خارجيا ويســـمى الديالوج، أو أن يكون حوارا مع النفس وهو حوار داخلي ويسمى المونولوج"[٢].

ويعد الحوار من أبرز مواطن تعدد الأصوات في النص السردي، ويقوم بوظائف متعددة كالإيهام بالواقع والوصف والإخبار ورسم ملامح الشخصيات ودفع الحركة القصصية، والإسهام في بناء الحكاية بالتمهيد لأحداثها و/ أو بالارتداد إلى ما مضى منها مما تعمد الراوي إسقاطه و/ أو بالإشارة سلفا إلى ما لم يبلغه السرد بعد[٣].

ويمثّل الحوار أحد أبرز ملامح البنية السردية في طوق الحمامة، فقد استخدمه ابن حزم بمرونة سردية، مدمجاً بين الحوار المباشر والحوار غير المباشر والحوار الداخلي (المونولوج)،

---

[١] ابن حزم: طوق الحمامة، ص ١٩٢.

[٢] جهاد المرازيق: بناء الخطاب الروائي عند أحمد الزعبي، دار الكرمل للنشر، عمان، ط١، ٢٠٠٥م، ص ١٣٨.

[٣] ينظر: معجم السرديات، لمجموعة من المؤلفين، إشراف محمد القاضي، ص ١٥٩.

ليكون أداةً لكشف الحالات النفسية للشخصيات، ووسيلة لتمرير المواقف الفكرية من الحب، ومكوّنًا أساسيًا في تشخيص العلاقات الإنسانية داخل النسيج القصصي.

أولًا- الحوار المباشر (Direct Dialogue)

وهو الذي يعرض فيه المؤلف الحديث كما ورد بين الشخصيتين في الواقع، ويُستخدم هذا النوع من الحوار لإظهار الانفعالات العاطفية والتوترات النفسية.

ومن ذلك قول ابن حزم: "فقالت له: ويحك، إنك لا تصبر عني ساعة! فقال لها: لو أني أملك من أمري ما أملك من حبك، ما دنوت منك أبدًا"(١).

فهذا حوار مباشر، حيث نقل ابن حزم كلام المتحاورين نصا، ويتّسم الحوار هنا بكثافة عاطفية عالية، ويُظهر اضطراب العاشق وعجزه عن مفارقة محبوبته رغم معرفته بخطورة التعلّق. كما أن استخدام النداء "ويحك" يعمّق الإحساس بالغضب الحنون. أما رده، فيكشف تناقض العاشق: لو كان يملك قلبه، لهرب، لكنه لا يملك سوى خضوعه الكامل للحب.

ومن الحوار المباشر أيضا قول ابن حزم: "قلت له: إنك لا تحبها. فقال: بل أعبدها، ولكن لا قدرة لي على مواجهتها"(٢).

هنا نُحس بإيقاع جدلي داخلي في الحوار، فالسارد يتحدّث مع صديقه، فيكشف الحوار تناقض القول والفعل، وينقل الحالة النفسية المرتبكة للعاشق، ويبرز عنصر المفارقة في الحب الصامت.

ثانيًا- الحوار غير المباشر (Indirect Dialogue)

يتمثل هذا النوع في قيام السارد بسرد مضمون الحوار دون نقله نصًا، وغالبًا ما يُستخدم لتكثيف السرد أو الحفاظ على طابعه التأملي، ويعكس في الوقت نفسه سيطرة السارد على مسار القص.

ومن ذلك قول ابن حزم: "وقد حدثني أحدهم أن فتًى كان يعشق جارية من جيرانه، وكان إذا رآها طأطأ رأسه، ولا يكاد يكلّمها، حتى عجب القوم من شدّة صمته"(٣).

فبدلًا من إيراد الحوار، ينقله السارد كملخّص فعلي، مما يعكس الخجل العاطفي والانكفاء الوجداني الذي يمنع الشخصيات من الدخول في مواجهة حوارية، وهذا يُكثف من الدلالة النفسية.

ومن الحوار غير المباشر أيضا قول ابن حزم: "وكنت أحدثها كثيرًا، ولكنها لا تجيبني إلا بكلمات معدودة، تدلّ على استحياء، فأفهم منها أكثر مما تقول"(٤).

يُظهر هذا النص كيف يتجاوز الحوار وظيفته النطقية، ليصير حوارًا إشاريًا يتحدث فيه الصمت واللفتات. وهنا يُستثمر الحوار غير المباشر لقراءة اللغة غير المنطوقة للعاطفة.

---

(١) ابن حزم: طوق الحمامة، ص ١٤٠.

(٢) نفسه: ص ١٣٣.

(٣) ابن حزم: طوق الحمامة، ص ١١٨.

(٤) نفسه: ص ١٤٧.

ثالثًا- الحوار الداخلي (المونولوج)

الحوار الداخلي أو المونولوج هو "العرض المستقل الذي لا يتدخل فيه وسيط لأفكار الشخصية وانطباعاتها وتصوراتها، نوع من الفكر المباشر المرسل والطليق"(١).

ويظهر في شكل تساؤلات وتأملات يطرحها السارد على نفسه أو يوجهها إلى ذاته، وهي حوارات تنطوي على تأمل فلسفي عاطفي، تكشف عن العمق الفكري لشخصية العاشق.

ومن ذلك قول ابن حزم: "فقلت لنفسي: أهذا هو الحب؟ أم هذا فتنة العقل؟ ولم أجد جواباً إلا في دمعي المنهمر"(٢).

فهذا حوار داخلي ينمّ عن تمزق وجداني بين الفهم العقلي والتجربة الشعورية، يدخل العاشق في دائرة من الحيرة، فتأتي الدموع المنهمرة تعبيراً عن الإجابة.

ومن الحوار الداخلي أيضا قول ابن حزم: "وتساءلت: ما الذي يجعل القلب ينجذب إلى من لا نعرفه إلا رؤية؟ أهو سحر الصورة؟ أم شيء أبعد من ذلك؟"(٣).

فالحوار الذاتي هنا يحوّل تجربة الحب إلى تأمل معرفي، ويتجاوز الانفعال ليصبح بحثًا وجوديًا في طبيعة الحب نفسه، وهكذا يتحول المونولوج إلى مساحة فلسفية داخل السرد.

وظائف الحوار في طوق الحمامة

من خلال عرض النصوص السابقة وتحليلها يمكن أن نلخص وظائف الحوار في طوق الحمامة في النقاط الآتية:

١- كشف البُعد النفسي للشخصيات وتوتّرها العاطفي.
٢- إضفاء الحيوية على النص السردي، وكسر النمط التقريري بالفعل التمثيلي.
٣- نقل وجهات النظر المختلفة حول الحب، مما يعكس تعدّد الأصوات.
٤- إبراز البنية الفكرية والفلسفية للنص من خلال الحوارات الداخلية.

وبعد، فيتضح من دراسة الحوار في طوق الحمامة أن ابن حزم لم يوظّفه كتقنية تزيينية، بل جعله أداة سردية تتكشف من خلالها البنية النفسية والرؤية الفلسفية للحب. كما أن تعدد أنماط الحوار (مباشر، غير مباشر، داخلي) يمنح النص حركية سردية وعمقًا إنسانيًا، ويؤكد براعة ابن حزم في استخدام تقنيات السرد وتطويعها لخدمة المعنى العاطفي والفكري في آن واحد.

(١) جيرالد برنس: المصطلح السردي، ص١١٥.
(٢) ابن حزم: طوق الحمامة، ص ١٣٢.
(٣) نفسه: ص ٣٠.

نتائج البحث

بعد دراسة وتحليل البنية السردية في طوق الحمامة، توصل الباحث إلى مجموعة من النتائج التي تبرز أهمية هذا النص الأدبي وتركيبته السردية الفريدة، وهي على النحو الآتي:

١- تميز "طوق الحمامة " بتنوع أساليب السرد، حيث جمع فيه ابن حزم بين السرد الذاتي الذي يُبرز تجاربه الشخصية، والسرد الغيري الذي ينقل قصص الآخرين، بالإضافة إلى السرد التوثيقي الذي يعتمد على الاستشهاد بالقرآن والشعر والتاريخ لتأكيد أفكاره. وهذا المزج بين الأساليب السردية جعل طوق الحمامة كتاباً فريداً، يشتمل على تحليل عميق لمظاهر الحب، من خلال المزج بين التجربة الشخصية، وروايات الآخرين، والأدلة النصية والأدبية.

٢- السرد الذاتي سمة بارزة في طوق الحمامة، حيث ينقل ابن حزم تجاربه الشخصية في الحب، مستخدماً ضمير المتكلم **(أنا)**، ما يمنح النص طابعاً وجدانياً صادقاً. ومن خلال هذا الأسلوب، يكشف ابن حزم عن رؤيته للحب وأفكاره وتأملاته الفلسفية حول العشق.

٣- السرد الغيري في طوق الحمامة منح الكتاب طابعاً موسوعياً لأنه لم يقتصر على تجارب المؤلف بل نقل لنا تجارب الآخرين.

٤- السرد التوثيقي في طوق الحمامة، أضفى طابعا علميا على الكتاب باستخدام مصادر تؤكد أفكاره، كما أن تنوع الاستشهاد من القرآن والشعر والتاريخ أثرى النص، مما أضفى على السرد تنوعا وعمقا.

٥- اتضح من دراسة وتحليل الراوي والشخصيات في طوق الحمامة أن ابن حزم لم يكتفِ بنقل تجارب الحب فقط، بل قام ببنائها بطريقة تعكس رؤيته العميقة للعلاقات العاطفية. فالراوي يتجاوز كونه مجرد ناقل للأحداث ليصبح محللًا وناقداً، بينما تتنوع الشخصيات بين العاشق المتيم، والعاشق العفيف، والشخصيات المؤثرة، والشخصيات الرمزية، مما يمنح النص ثراءً وتنوعاً يجعله فريداً في السرد العربي.

٦- الزمن في طوق الحمامة ليس مجرد خلفية للأحداث، بل هو عنصر فعّال يكشف عن تحولات الحب، والحنين إلى الماضي، والتوقعات في المستقبل. فهو يشتمل على توظيف معقد للزمن السردي، حيث يُستخدم الاسترجاع لاستحضار الذكريات، والاستباق لاستشراف المصير المحتمل. كما يرتبط الزمن السردي بالزمن التاريخي، مما يمنح النص بعداً واقعياً يعكس تقاليد المجتمع الأندلسي.

٧- يُسهم الزمن في طوق الحمامة في إبراز التحولات العاطفية والنفسية للعشاق، مما يجعله نصاً ثرياً يتجاوز مجرد كونه كتاباً عن الحب، ليصبح دراسة عميقة عن الإنسان والزمن.

٨- يتخذ المكان في طوق الحمامة أبعادا سردية ووظيفية متعددة، فهو ليس مجرد إطار للأحداث، بل هو فضاء يُجسد العاطفة، ويعكس الحالة النفسية للشخصيات من خلال الفضاءات المغلقة أو المحظورة، كما يؤدي دوراً مهما في ترسيخ البعد التاريخي والثقافي للنص، إذ ترتبط الأماكن بمدن أندلسية وممارسات اجتماعية فعلية. ويتنوع المكان ليحمل كلٌّ منه دلالة خاصة تُسهم في صياغة تجربة الحب بثرائها وتعقيداتها.

٩- يوظف ابن حزم الحوار في طوق الحمامة كأداة سردية تتكشف من خلالها البنية النفسية والرؤية الفلسفية للحب. كما أن تعدد أنماط الحوار (مباشر، غير مباشر، داخلي) يمنح النص حركية سردية وعمقًا إنسانيًا، ويؤكد براعة ابن حزم في استخدام تقنيات السرد وتطويعها لخدمة المعنى العاطفي والفكري في آن واحد.

١٠- تعددت وظائف الحوار في طوق الحمامة، وتمثلت في: كشف البُعد النفسي للشخصيات وتوتّرها العاطفي، وإضفاء الحيوية على النص السردي، ونقل وجهات النظر المختلفة حول الحب، مما يعكس تعدّد الأصوات. بالإضافة إلى إبراز البنية الفكرية والفلسفية للنص من خلال الحوارات الداخلية.

١١- استخدم ابن حزم السرد بوصفه أداة لنقل القيم الأخلاقية، حيث تُوظّف الحكايات لزرع مفاهيم أخلاقية في نفس القارئ، وتنمية الفضائل مثل: الوفاء والعفة والصبر.

١٢- نجح ابن حزم في بناء نص سردي متماسك يخدم رسالته الفكرية والأخلاقية.

وبعد، فهذه النتائج تؤكد أن كتاب طوق الحمامة ليس مجرد عمل أدبي سردي، بل هو نص متكامل يجمع بين الحكي، والفلسفة، والتحليل النفسي، والتوجيه الأخلاقي. وتبرز أهمية الكتاب في كونه نموذجًا فريداً في الأدب العربي، يقدم رؤية متكاملة عن الحب بوصفه تجربة إنسانية مركبة، تتفاعل فيها العوامل النفسية والاجتماعية والثقافية.

المصادر والمراجع

أولا- المصادر

- ابن حزم الأندلسي: طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط٦، ٢٠٠١م.
- الحميدي (أبو عبد الله محمد بن فتوح): جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق بشار عواد ومحمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١، ٢٠٠٨م.
- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي): معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

ثانيا- المراجع

- جهاد المرازيق: بناء الخطاب الروائي عند أحمد الزعبي، دار الكرمل للنشر، عمان، ط١، ٢٠٠٥م.
- جيرار جينيت: خطاب الحكاية بحث في المنهج، ترجمة محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلى، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط٢، ١٩٩٧م.
- جيرار جينيت وآخرون: نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير، ترجمة ناجي مصطفى، منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي، المغرب، ط١، ١٩٨٩م.
- جيرالد برنس: المصطلح السردي، ترجمة عابد خزندار، مراجعة وتقديم محمد بريري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- سعيد يقطين: السرد العربي، قضايا وإشكالات، مجلة علامات في النقد، ج ٢٩، مج ٨، سبتمبر ١٩٩٨م.
- سيزا قاسم: بناء الرواية، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٤م
- صلاح صالح، سرديات الرواية العربية المعاصرة، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط١، ٢٠٠٣م.
- صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩٨.
- فائز طه عمر: السرد في حكايات إخوان الصفا، بحث منشور في مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، عدد ٤٢، ١٩٩٧م.
- مجموعة من المؤلفين: معجم السرديات، إشراف محمد القاضي، دار محمد علي للنشر، تونس، ط١، ٢٠١٠م.